تفسير قوله تعالى: أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ

{ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. يقول الله جل وعلا: { أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ } . هذا مما قص الله علينا من قصص أنبيائه مع أممهم. لما قال نوح لقومه: { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } وردوا عليه ذلك الرد القبيح الشنيع، وقالوا له: { إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } وقابل سفاهتهم وجهلهم وقبح ردهم بالكلام اللطيف، والجواب الكريم الخالي من بذاءة اللسان اللين. كما هي عادة الرسل في مخاطبتهم مع الكفرة الجهلة { يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } قال أيضا لقومه: { أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ } أجرى الله العادة بأن الأمم إذا بعث فيهم رسل منهم يقولون: لو كان الله مرسلا رسولا لما جعله بشرا يأكل الطعام، ويشرب كما نشرب، ويروح إلى السوق ليقضي حاجته، ويتزوج ويولد له. لو كان مرسلا رسولا لأرسل الملائكة، لأن لهم هيبة ليست عند الآدميين، وعلامات تميزهم عن الآدميين، ويقولون للرسل: أنتم بشر مثلنا تأكلون كما نأكل، وتشربون كما نشرب، وتذهبون إلى الأسواق لقضاء حاجاتكم كما نفعل. وتتزوجون كما نتزوج، ويولد لكم كما يولد لنا؛ فأنتم بشر مثلنا لا يمكن أن نكون لكم تبعا، وأن تكونوا أفضل منا بحيث تكونون آمرين ناهين علينا. هذه عادة أجراها الله كما قال تعالى: { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } ؛ كيف يبعث الله بشرا يأكل ويشرب ويذهب إلى السوق؟!! وهذا كثير في القرآن: { فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ } لا يمكن هذا. { أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ } { مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } { مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ } فيعجبون من أن الله يبعث الرسل من البشر ويستنكرون هذا الأمر، والرسل تبين لهم أن هذا لا عجب فيه؛ لأن الله ما أرسل إلى الأمم إلا رسلا منهم كما قال: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا } لم نرسل قبل ملائكة. وقال جل وعلا لما قالوا: { مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } قال الله: { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ } إلى غير ذلك.